الفصل الأول

أخلاق العلم

ما عسى أن يكون للعلم من أثر فى مجال الأخلاق ؟ وما عسانا أن ننتظر منه فى هداية سلوك المجتمعات والأفراد فى الحياة النفسية التى يحنون فيها إلى ضمائرهم ؟

يقول بعض الناس : لاشىء . فالعلم مناوئ للأخلاق مفسد فى الأرض إذ يزيد قوانا على سفك الدماء ويجعل الإنسان عبدا للآلة ، ويزوّد البغضاء والشره والحماقة بسلاح خطر . فلا ينبغى أن نرجو منه أن يسنّ لنا أدب السلوك ، بل الأولى أن نفرضه عليه .

ويترفق البعض الآخر ، فلا يتهمون العلم ، بل يخطئون وده ، وقد يطلبون إليه عن طيب خاطر دقائق فنية فى تدبير صحة البدن أو شيئا من التفصيلات عن التنظيم الاجتماعى . ولكنهم ينكرون عليه الحق فى وضع القواعد أو رسم المثل العليا ، لأن العلم بطبيعة تكوينه يقرر ولا يحكم : فهو لاينافى الأخلاق immorale ، بل لايبالى بالأخلاق amorale

وما قيمة هذين الاعتراضين ؟

أود قبل بحث هذه المسألة ان أشير إلى أن الاعتراضين خلافا للظاهر يؤذيان العلم على حد سواء . يبدو لأول وهلة أن الضير الذى يقع على العلم ممن يتهمونه و يظهرون له العداء أبلغ مما يقع عليه ممن يرونه خارج دائرة الأخلاق وقد يمهدون له سبيلا حسنا لأداء مهمة ثانوية ليست بذات خطر. ولكن أليس فى إعطائنا للعلم نصيبا ضئيلا فى الأخلاق ازراء به لا يقل خطرا عن إبعاده عن الأخلاق ؟ فما أضأل شأن العلم إذا تركناه يقدم لنا خلسة شيئا من المعلومات على الهامش ، أو بعض التعليقات والحواشى فى أسفل الصفحة !

إن الأخلاق بمعناها الصحيح ، ليست دفترا تقيد فيه النصائح والإرشادات العملية ، وإنما هى تعبير عن مثل أعلى ، مثل أعلى أعنى شيئا يستولى على الإنسان كله ، ويرفعه بالتجرد عن الذات فوق نفسه ؛ شيئا يبعث فينا يقيناً وحماسة ، وينشط الذهن والقلب جميعا ، ويجعل لحياتنا قيمة ، ويضفى عليها جمالا .

ولقد كانت جلائل الأعمال فى جميع الأزمان ثمرة لتقديس المثل الأعلى، وبه وحده يحق لنا الرجاء فى أن ننطلق من هذه المادية الأخلاقية، ومن هذا الإسفاف والتفاهة التى تتردى فيها الجماعات المعاصرة كل يوم

أمام أعيننا . فلو تصورنا الحياة وقد خلت من هذا اللهيب لما أضحت بقية الأخلاق إلا حكمة هزيلة باهتة ، هى أشبه بأن تكون توفيقا بين مصالح ، وصناعة أو فنا للأنانية ، فى حين أن أضأل عمل من أعمالنا اليومية يصبح له معناه إذا كان صدى لشىء عظيم نؤمن به ونحبه . فإذا أنكرنا على العلم حقه فى إعطائنا مثلا أعلى ، وانتقصنا من مهمته فجعلناها أمرا ثانويا ، نكون فى الحقيقة قد منعناه من أن يؤثر أثرا جديا عميقا على أسمى ما فى المصير الإنسانى ، وما يبث الروح فى الهيئات والحياة فى الضمائر ، ونكون كمن يمسكون به على عتبة الهيكل قائلين له : « لن تدخل » !

* * *

أيحق لنا أن نقول له ذلك ؟ أيحق لنا أن ننحيه وننصرف عنه كأنه مناوئ للأخلاق أو كأنه شىء لا شأن له بالأخلاق ؟ وما حجتنا فى القول بأن الأديان والفلسفات تستطيع أن تبث الحياة فى نفوس الهيئات والجماعات وأن العلم يعجز عن ذلك ؟ وكيف يسوغ لنا أن نزعم أن أمثال هذه المخترعات الرائعة التى يكاد يقصر عنها الوهم ، والتى تغير أمام بصرنا صورة الكون ، هى أشياء لا أثر لها فى الحقائق العميقة حقائق الحياة الباطنة ، ولا فى الشعر والعواطف ، ولا فى الحركات الكبيرة التى توجه سير العالم ؟

أما أنا فلا أستطيع أن أسلم بهذا الحل اليائس الذى يفتح لنا سبل التقدم فى مجال المعرفة ولكنه يغلقها فى مجال الأخلاق . وما أكثر ما يلزمنا من أدلة لكى نسلّم بفكرة إخفاق كهذا ! ولست أرى فى هذه المعارضة التى يحاول بعض الناس توجيهها إلى العلم إلا آخر جهد تبذله قوى الماضى لمكافحة قوى الحاضر، وإن كنت لا أنكر ما ينطوى عليه هذا الجهد من حسن النية . لقد نظرتْ السلطاتُ المطمئنة إلى فتوحات البحث العلمى، تلك الفتوحات التى لم تكن لتخطر من قبل على قلب بشر فأخذها الفزع . ولما رأت السهول وقد غزاها العلم أرادت على الأقل أن تحافظ على المرتفعات . وهذا شبيه بما تحدثنا عنه أغانينا فى القرون الوسطى : ما يكاد البارون يحس هجوما حتى يتخلى عن المدينة ، ويعتصم بالقلعة .

ولكن ها هى ذى ثلاثة قرون قد سلخها العلم دون أن يقف أحد فى سبيله . إن العلم بطبيعته غزو ، والنتائج التى يحققها هى جوابه على من ينكرون عليه إمكانياته . فبعد أن رأينا العلم يبلغ فى الفضاء ما كان يبدو بعيد المنال ، كيف يحل لنا أن نعتقد أنه سيقف أعزل من كل سلاح على عتبة العالم الأخلاقى ، اللهم إلا أن تقع كارثة اجتماعية أو سكتة مفاجئة فى الحضارة الغربية ، فتفل من غربه وتحطم وثبته !

قد يقال إن الاعتراضين الكبيرين اللذين أشرتُ إليهما فيما سبق

باقيـان مع ذلك . وأظن أننا نستطيع أن ننقض الاعتراض الأول . أما الاعتراض الثانى فأخطر منه وقد استوقفنى كثيرا؛ ولكنى أرى اليوم أننا نستطيع أن ننقضه . وكيف يكون ذلك ؟ بمخالفة الطريقة التقليدية فى وضع المشكلة : أصر النـاس اصرارا عنيدا على أن يطلبوا إلى عـلم الأخلاق مثلا أعلى ، وأنا أقول بل يجب أن يطلبوه الى أخلاق العلم .

الفصل الثانى

هل العلم مناوئ للأخلاق ؟

الاعتراض الأول : العلم منافٍ للأخلاق

يبدو ـ مع الأسف ـ أن من أيسر الأمور أن يوجه إلى العلم هذا المأخذ. قد يحلو للخطباء الرسميين أن يرددوا فى كل مكان أن العلم يكافح المرض والموت، و ييسر ايجاد الثراء، و يعين الفكر على الذيوع . ولكن هذه الأقوال كلها تذهب أدراج الرياح وما نكاد ننصت إلى هذه العبارات « الجاهزة » وتأنس لها نفوسنا حتى نجد الوقائع هى أيضا تتكلم ، ولغتها شديدة جافة أحيانا .

بالأمس ذهب خمسة عشر مليونا من الرجال ضحية للحرب . فمن الذى سلح الشعوب لتفعل أفاعيل الفتك هذه ؟ العلم ، بالعلم رأينا السكك الحديدية والسيارات تقذف فى لمح البصر كتلا بشرية على حقول القتال. و به رأينا المصانع ـ وهى دائما على أحسن أهبة ـ تضاعف إنتاجها من المدافع والذخائر ، و بواسطته انتظمت القاذفات المهلكة ، وحلقت الطائرات

فوق الجيوش والمدن ؛ والعالِم حين يقف ثابتا أمام الجثث والأشلاء ولا يحرك ساكنا إزاء التشويهات والجراح يبدو للناس أطوع الخدام للقتل والدمار .

أغلطة يوم هى أم انحراف ساعة ؟ كلا . إن مما يؤسف له أنه ما كاد يتم توقيع الهدنة وردم القبور حتى رأينا العامل تشتغل بأقصى ما فى طاقتها . ولأى شىء ؟ ألقتل روح الحرب ؟ كلا . وإنما هى فى شغل لكى تكون الحرب المقبلة أشد فتكا ! بل إننا نرى اليوم باحثين يقبلون على مهمتهم وعلى وجوههم سيما الجد والدءوب والإصرار ، حتى ليخيل إلى من يشاهد هذه الحماسة الرائعة أنهم قد انقطعوا لمشروع كبير فيه منفعة للناس. فإن دخلنا وجدناهم يبحثون عن الغاز الذى يحمل أضمن موت فى أوسع مدى . وإذا ظفرت جهودهم بالنجاح فإننا سنرى فى الغد أن قتل الناس بعضهم بعضا لن يكون مقتصرا على المحاربين . وسنودع تلك الجمل التى رددها القدماء فى تجنيب الضعيف ويلات الحرب cui bella parcunt وسنشهد إزهاق الأرواح بين الشيوخ والنساء والأطفال ، وستمحق الحياة فى المدن وفى القرى ، حتى يستطيع الناس أن يقولوا فى العلم ما قيل فى الفارس الذى يتحدث عنه سفر الرؤيا : « إن اسمه هو الموت » !

فاذا قيل إن الحرب على الرغم من ذلك كله أمر شاذ ، وإن زمان السلم يبقى مبرءاً من ويلاتها ، نهضت الوقائع من جديد لتفنيد هذا الرأى:

فهذه الآلات التي تزيدها جهود المهندسين كل يوم إبداعا، هل قدمت إلى مجتمعاتنا حياة السعة والاطمئنان التي وعدونا باسمها ؟ إن في وضع السؤال سخرية قاسية : فالعمل في المصانع، ذلك العمل الذي لا يكاد يترك للعامل وقتا للتنفس، يحدث في هذه اللحظة نفسها البؤس والبطالة . وقد يخطر لمن ينظر في حال بعض العمال أن يتساءل أيهما عبد للآخر : الآلة عبد للإنسان أم الإنسان هو الذي أصبح شيئا فشيئا عبدا للآلة !

صحيح أن فريقا من الناس في عصر الاستعباد القديم قد قضى عليهم أن ينفقوا حياتهم محبوسين في المنجم لا يخرجون منه، أو مقيدين بطاحون لا يستطيعون منه فكاكا . لكن أولئك كانوا بالأمس قلة ؛ أما اليوم فإن شعبا بأسره يقدم ، ساعة بعد ساعة ، ضحية للمعبود الجديد .

و «تعقيل» الصناعة rationalisation ، الذي هو ثمرة منطق قاس جاف ، يقضي على صانع الأمس بمصير شبيه بمصير الآلة التي لا إرادة لها .

كان ينبغي، بل كان من الممكن أن تكون الصحافة والسينما والراديو موطنَ حياة عقلية وحياة انطلاق. ولكننا نرى الصحافة تتخلى عن خدمة الفكرة لخدمة المال . لقد زار «أناتول فرانس» ذات يوم مطبعة كبيرة، فحيى « هذه الحروف الرصاصية الصغيرة المقدسة التي ستحمل العدالة والحق في أرجاء العالم » . وا أسفاه ! إن الحروف الرصاصية على وجه العموم

تحمل الكذب والغباء وروح البغضاء وروح الحرب وكل هذه المادية الكثيفة التي تخنق أنفاس العالم . ولقد سارت السينما والراديو على هذه السنّة ، فسخرتا من الفكر ومن الفن ، وأصبحتا للناس مدرسة لنشر الغفلة والحماقة !

صحيح أن من الممكن أن نتفادى رؤية هذه الوقائع وجها لوجه . ولكن من حين إلى حين ترتفع أصوات الاستنكار فتنبهنا إلى الحق : إن نصف العالم ، ويمثله «غاندى» و«تاجور» ، يوجه الاتهام إلى النصف الآخر. أفنتظاهر بأننا لانسمع؟ إن هذه المدنية الناشئة من العلم ، والتي نزهو بها كل الزهو ، هي في رأى غاندى « العصر الأسود عصر الظلمات » ! والآلة التي نريد أن نجعل منها إله الخلاص يراها هو «الصنم البشع» ! وكل حياتنا الصاخبة ، نحن معشر الغربيين ، ليست إلا هيجانا مثيرا للضحك ، وليس من شأنه إلا أن يصرفنا عن العمل الباقي الصحيح . و«تاجور» وإن كان أكثر اعتدالا من «غاندى» يحمل على العلم حملةً أشد فيقول: «إن الحياة القائمة على العلم تحلو لبعض الناس لأن لها كل صفات الرياضة البدنية : تتظاهر بالجد ولكنها خلو من العمق ، وهي لا تحسب حسابا للطبيعة الإنسانية العالية » .

أعتقد أن من العسير على من يقرأ دون تحيز هذه الأقوال الحكيمة

الهند أن لا يحس باضطراب عميق : فإن أحدا لا ينكر آخر الأمر أن الرجلين من أعلام الحياة الروحية . قد يُعترض عليهما أنهما نظرا إلينا من الخارج ، فتجاوزا فى حكمهما حد الاعتدال ، وأن لهما آراء سابقة فى « برابرة أوروبا » العظماء .

والجواب أن صوتا قد ارتفع من أوروبا نفسها مؤيدا لهما. لا يخطر ببال أحد أن أكبر علماء الطبيعة المحدثين يتكلم عن العلم الذى جددته عبقريته وفى نفسه ذرة من تحامل. ولكنّا نجد مع ذلك أن «أينشتين» لايقل قسوة عن «غاندى» فى حكمه على العلم إذ يقول : «لم يُستخدم العلم حتى اليوم إلا فى خَلْق العبيد : ففى زمن الحرب يستخدم فى تسميمنا وتشويهنا ؛ وفى زمن السلم يجعل حياتنا قلقة منهوكة مرهقة . كنا ننتظر أن يستعين الناس بالعلوم فى الانصراف إلى الأعمال العقلية ، فينالوا بذلك أكبر حظ من الحرية ؛ ولكن بدلا من ذلك صيرتهم العلوم عبيداً للآلة: إن السواد الأعظم من العمال ينفقون نهارهم الطويل الرتيب الخالى من البهجة وهم فى أشد حالات المضض والتبرم ، ولا يمنعهم ذلك من الارتعاد خوفا على مرتباتهم الضئيلة » ! ويمضى « أينشتين » فى حملته على العلوم فيقول : « أعمال جديرة باللعنات » .

لنسلم بأن فى كلام أينشتين غلوا ، وأنه إنما شدد النكير على العلم لأنه كان قد أسرف فى الإيمان به ؛ فهى مرارة وحفيظة محب مخدوع . ولنسلم أيضا ، لكى نكون منصفين، أنه لابد أن نقبل شيئا مما يرد فى الخطب الرسمية التى تشيد بما للمعرفة العملية من حسنات ومناقب : إذا كان العلم يقتل فهو ينجى أحيانا ، وإذا كان يسلّح الأحقاد ، فهو يسلح أحيانا إرادة الاتحاد ، وإذا كان يُرضى الغرائز المنحطة الشريرة فقد يتفق له أن يخدم أغراضا نبيلة لطيفة . ولكنا حتى لو ذهبنا إلى افتراض جرىء فقلنا إن بعض الحسنات قد تعوض عن بعض السيئات ، لكان ذلك اقراراً بالهزيمة وأى هزيمة ؟ فليس أشد منافاة للأخلاق بالمعنى الدقيق من أن يكون العلم قادرا على الخير فيعمل للشر ، وأن يعرف أنه قوة من قوى الحياة فينقلب قوةً من قوى الموت .

كلا . لن يحظى العلم بالغفران من أجل الحسنات التى يقدمها إلينا : لأن أكبر مايقع فيه من شناعة هو استطاعته أن يُعين على العدالة والمحبة ، وشعوره بالقدرة على ذلك ، ثم عدوله فى برود عما بدأه من تلك المهمة لكى يخدم القسوة والشراهة والحماقة . وقد نلتمس ، إذا اقتضى الأمر ، بعضَ العذر لقوةٍ لا شأن لها بالأخلاق وليس لديها فكرة ما عن الخير ولا عن الشر . ولكن كيف نبرىء علما لديه فكرة عن الخير ويخدمه أحيانا ،

ولكنه ينقلب عليه فجأة ويشرع فى العمل للموت وللألم والعبودية ؟ أليس فى مثل هذه الصفاقة السافرة ما يدعو أولئك الذين يضعون العدالة وطيبة القلب فوق كل شيء إلى أن يأخذوا بما ذهب إليه «بسكال» من أن العلوم ليست «من شأن الإنسان»، وأن الإنسان يضل عن سبيله إذا وقف عليها أكثر مما يضل إذا جهلها ؟

☆☆☆

هذا هو الاعتراض . وأنى أختصر الاتهام، وبودى أن لا أكون قد أوهنته : لأنه إذا كان الأمر لا يعدو الوقائع المذكورة فإنى أشعر باتفاق عميق مع أولئك الذين ذكروها : فأنا أكره مثلهم آثار الحرب والموت هذه التى تجهز فى ظل معامل الاختبار العلمى ؛ ولكنى لا أستطيع أن أفكر بدون اشمئزاز فى هذه «الحضارة التى تنسب إلى العلم والتى تقصر مطامعنا على الظفر بالخيرات المادية وعلى اكتساب وسائل الراحة الرتيبة والترف الغليظ الخالى من الابتداع . كلا إنا لسنا فحسب منتجين ومستهلكين ، قد كتب علينا ـ ولا فضل لنا ـ أن نصنع وأن نشترى . وهذا النوع من الهمجية التى تهدد أوروبا القديمة متخفية وراء ستار العلم يبدو لى فى وخامة عواقبه كالهمجية التى قوضت فى القرن الخامس العلمَ الرومانى القديم . فلو كان العلم ـ كما يعتقد غاندى وكما يبدو أنه رأى

أينشتين ـ مسؤولا عن جميع الآثام التى تقترف باسمه توجب بغضه مع الاستمرار فى الإعجاب به . ولكن هل العلم مسؤول عن ذلك ؟

كلا . هذه الآثام حق لا ريب فيه . ولكن مهما يكن رأى رجال ضللهم قلب كريم ، فالعلم ليس مقترف هذه الآثام . والذى يوقع بعض الناس فى الخطأ هو أنهم فى الغالب يخلطون بين العلم فى نفسه وبين التطبيقات المستفادة من العلم . فرجل الشارع لا يفهم من العلم إلا السكك الحديدية والطائرات والتلغراف والتلفون والآلات على اختلاف أشكالها . واللغة والعادات تسوق إلى هذا الخلط سوقا شديدا ، حتى يجوز الخلط على العالم نفسه أحيانا ، فيتكلم ويحكم وكأن العلم هو ذلك كله حقا . ولكن العلم لحسن حظه وحظنا شىء آخر غير ذلك : إنه البحث عن الوقائع والقوانين بحثا بريئاً .

إنى لا أقول هذا هنا دفاعا عن القضية : فإن التمييز بين جهة النظر وجهة العمل فى المعرفة والفن هو أول ما ينظر فيه البحث العلمى ، وهو شرطه وقانونه . ومهمة الباحث سواء فى علم الطبيعة أو فى علم البيولوجيا أو فى علم الاجتماع مقصورة على جودة التمحيص للوقائع وسنها قوانين . إنها مهمة لا تنتهى ، بوجه ما : لأن المشكلة التى حلت تضع دائما مشكلة أخرى ، ولأن الطبيعة تقف عن تقديم الغذاء لما فينا من رغبة إلى التطلع ؛

ولـكنها مهمة محدودة أيضا ، لأن العالِم من جهة كونه عالما يقصر جهده على الفهم المحض. ولو لم يكن الأمر كذلك فما الذى ترمى إليه هذه الفروض كلها التى يسميها قوانين ؟ ليس لهـا عنده إلا مقصد واحد : يجب أن تعطينا عن الـكون تمثـلا وصورة ذهنية هى دائمـا أوسع وأقرب إلى المعقولية . وجماع حياة العالِم فى كلة هى المعرفة ، المعرفة لا أكثر ولا غير. صحيح أن الإنسان بعد أن يتم له تمحيص الوقائع وصياغة الفروض العلمية يريد أن ينتفع بهـا فى سـد حاجاته وإرضاء رغباته وتحقيق أهوائه : ومن هنـا نشأت آلات المخترعات العلميـة التى جاءت الآلة رمزا لهـا . ولـكن القانون المقترح شىء والفائدة التى يحلو لنا أن نستخلصها منـه شىء آخر ؛ والمعرفة شىء والاستخدام شىء آخر . وإذا كنا لا نحكم على جهاز من كيفية استخدامه على يدى عامل غبى أو (غشيم) قليل المهارة ، فبأى حق نحكم على العلم تبعا لما تجرأت على استخدامه فيه إنسانية جشعة قاسية ؟

فالتمييز بين الأمرين واضـح كل الوضوح ، بحيث يتساءل الإنسان كيف أمكن أن يقع هذا الخلط . أما أنا فأرى أن لذلك الخلط سببين : الأول أن الذى يكتشف القانون العلمى ويرسم مشروع الآلة رجل واحد فى الغالب . ومن هذا يتعجل البعض فيستنتجون من كون العالم واحدا

أن المهمة واحدة . والثانى أن العلماء كثيرا ما يكونون أول من يفاخرون بالتطبيقات النافعة أو التى يرجى أن تعود بالنفع على الجماعة ؛ وقد ينساقون إلى القول بأن غاية العلم أن يسيطر على الطبيعة . وما داموا يستبيحون لأنفسهم الفضلَ فى النجاح الموفَّق فهم معرَّضون منطقيا لأن يتحملوا وزر التطبيقات الآثمة . ولكن إذا كانت هذه الأسباب تفسر الخلط المألوف بين العلم والصناعة واستعماله ، فهى لا تبرره .

نعم إن الغالب أن الرجلَ الذى يعرف هو نفسه الرجل الذى يعمل ، وأن الذى يكتشف هو عين الذى ينتفع من الاختراع . ولكن الواقع أنه متى تم له أن يركب آلة أو جهازا من أجل غاية تتجاوز المعرفة المحضة يخرج من مجال العلم ولا يعود يحمل مهما يفعل إلا مسؤوليته الشخصية. ومهما يبق الرجل هو نفسه ولا يخرج من معمله فإنه يترك مهمة ويقبل على أخرى . وإذا تغير قصده فقد تغيرت أيضا عقليته: فهو حين يكون عالما تكون لديه رغبة واحدة تملك عليه نفسه وهى الرغبة فى المعرفة ؛ وحين يكون إنسانا تكون له أهواؤه وعواطفه وعاداته ومصالحه وآراؤه. ولما كانت له أهواؤه فليس عجيبا أن يسخر معرفته لخدمتها . ولكن لا دخل للعلم فى أمثال هذه الرغبات ، وهو منها برىء ولو كانت آثمة .

وصحيح أيضا أن العلماء يفخرون بالمخترعات الخطيرة. ولكن من الحق

أيضا أنه إذا كان لهم فيها فضل، فليس ذلك من حيث أنهم علماء . فالعلم لم يوصهم بها ولم يوح بها إليهم : فى أى مكان من كتب علم الطبيعة يقال إن من اللازم التغلب على المسافات ؟ وفى أى مكان من البيولوجيا يقال بوجوب إنقاذ العدو بدلا من الاجهاز عليه ؟ وعلى أى براهين علمية يمكن أن تستند نصائح من هذا القبيل؟ وكيف تنقلب الملاحظة قاعدة ؟ إن الرغبة فى الإسراع والرغبة فى معالجة المرض والرغبة فى التغلب على الفضاء والمادة كلها أشياء سابقة على العلم الوضعى ، وقد ألهمت العدّاء والساحر قبل أن تُلهم المهندس والطبيب . فاذا كانت أشياء خيرة فليس للعلم فضل فى هذا الخير : ولهذا السبب عينه لم يكن العلم مسؤولا لا عن المدفع ولا عن القنبلة ولا عن سائر تلك الوسائل الفتاكة الآثمة .

* * *

وإذن فالخلط الشائع الذى لا مبرر له بين العلم وتطبيقاته هو منشأ اتهام العلم بأنه مناوئ للأخلاق بحجة أننا قد راق لنا أن نستخلص منه وسائل للقتل وللاستعباد . والموت الذى سببه الفولاذ أو الغاز، والآلام الحادثة من المصنع ، والسخافات التى تذيعها السينما : كل هذا ليس من صُنع العلم ، بل من صنعنا نحن .

ولو نشأت ونمت الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا وسط شعوب حكيمة لما « استُخدمت » إلا لغايات سليمة كريمة . وإذا كان ما يحدث

خلافا لهذا ، وإذا كانت الكشوف العلمية التى تعطينا عن الواقع صورة أكثر اتساقا قد جعلت فى خدمة أعمال الفتك والعدوان ، فليس الذنب ذنب هذه المكتشفات ، وإنما هو ذنب مجتمعاتنا التى تحمل فى نفسها رغبات فاسدة . وإذا لاحظنا أن هذه المجتمعات تستخدم العلم لإزهاق الأرواح تارة ولعلاج الأمراض تارة أخرى ، وأنها على الجملة توجهه إلى الشر أكثر مما توجهه إلى الخير ، فمعنى هذا أننا خيرون وأشرار ، أو أننا أميل إلى الشر منا إلى الخير . وهذه الملاحظة صحيحة وإن لم تكن جديدة . ولكنها إن صحت حجة علينا فليست تصح حجة على العلم .

لقد هوجمت إحدى المدن اليونانية القديمة وكادت أن تقع فى أيدى الأعداء . فلما ضاقت بحراسها سبل الدفاع عنها ألقوا على المهاجمين تمثالا من تماثيل الآلهة . وصرع التمثال الأعداء ، وهو طرفة من طرف الجمال . فهل خطر لأحد أن يتخذ من ذلك حجة على أن الفن الجميل قاتل للناس ؟ ولو اتفق أن عاون المثال نفسه على رمى التمثال فلن يضير ذلك فن الحفر فى شىء . فليس من الإنصاف إذن أن ينهض غاندى وتاجور وأينشتين نفسه ، فيتهمون العلم ويحاولون أن يحملوه عبء الآثام التى تقترف باسمه وفى كنفه . فإذا أردنا أن نحكم على العلم دون

تحيّز وجب أن نحكم عليه فى ذاته ومن وظيفته الخاصة . و إذا نظرنا إليه من هذا الوجه وجدناه بريئا من كل ما يرمونه به . إن العالِم إنسان كسائر الناس ؛ وهو لذلك يجوز أن يقترف الإثم . ومن الأسف أنه يأثم فى أكثر الأحيان . ولكنه إذا استعان بالعلم على الإثم فلن يكون العلم شريكا له بل يكون من ضحاياه .

obeikandl.com

الفصل الثالث

هل العلم غريب عن الأخلاق ؟

من سوء الحظ أننا حين رددنا على الاعتراض الأول قد جعلنا الاعتراض الثانى قويا بحيث يكاد يمتنع تقويضه . ذلك أننا إذا سلمنا بأن العلم ليس مناوئا للأخلاق اضطررنا إلى أن نعده غريبا عن الأخلاق ولا عناية له بالخير ولا بالشر وإنما هو موكل بالبحث عن الحق فحسب .

وكيف ننكر هذا ومهمة الأخلاق هداية العمل ، ومهمة العلم تفسير الكون؟ إن الأخلاق تحكم juge أما العلم فيلاحظ constate . والعالم يحدثنا عما هو كائن، أما الأخلاق فيحدثنا عما ينبغى أن يكون. ولا يستطيع المرء أن يجمع بين هاتين المهمتين المختلفتين : فليس من شأن الفلكى أن يحكم على النجوم ، ولا من وظيفة عالم الطبيعة أن يناجى الذرة . فإن حاول العلم — وما هو إلا دراسة الموجود — أن يرسم لنا المثل الأعلى

جاوز مهمته وزالت عنه صفة العلم . وما دام العلم بارعا فى المعرفة وغير بارع فى الحكم ، فهو بطبيعته غريب عن الأخلاق .

هذا هو الاعتراض . وما يخطر لى أن أوهنه ، بل إنى أحب على العكس أن أكشف عن قوته ، لأنى أعتقد أن كثيرين من أهل العقول الراجحة قد تجاهلوا قوة الاعتراض ، فأساءوا تصور العلاقات بين الأخلاق والعلم ، وقادونا إلى الهوة التى يجب علينا أن نخرج منها اليوم .

حق إن العلم «وضعى» «positive» لا «معيارى[1]» «normative» وحق أنه يبحث فيما هو كائن ، لا فيما ينبغى أن يكون . وصحيح أن العالِم يجب عليه حين يبحث عن حقيقة ما أن يخرج من هذا البحث كلَّ رغبة صريحة أو مستترة تدعوه إلى أن يحكم على ما يشاهد أو أن يستخلص منه قاعدة للحياة . وما فتئ كثير من الناس مترددين فى قبول هذا الأمر البديهى ، لأنهم يرون فيه نوعا من الإخفاق . فهم يصرون على أن يقولوا للعلم : « اخلق واعطنا أخلاقا ! » ، ولكنهم لا يتنبهون إلى أن العلم لو استجاب لأمنيتهم لخرج عن مهمته ، وفقد احترام نفسه ، وضاع معه نفوذه .

من هذا الخلط نشأت جميع المذاهب الأخلاقية المتهافتة التى يسمونها «علمية» ، والتى ربما كانت تضرّ بالعلم لو لم يكن العلم فوق هذه الألاعيب التى يحاولها البعض مستغلين اسمه .

---

(١) أنظر هامش (١) فى بداية الفصل الرابع .

فمن الناس من يطلب إلى البيولوجيا علما أخلاقيا فيقول : « جميع الكائنات تريد أن تعيش . وهذه حقيقة واقعة . فإرادة العيش يجب أن تستخدم أساسا للأخلاق » . ولكنا نقول إنه لو ثبت أن جميع الأحياء يريدون أن يعيشوا فبأى حق يقرر العلم أن مثل هذه الإرادة عاقلة وأنها طيبة ؟ وعلى أى نوع من المشاهدات أو التجارب يستند هذا القول ؟ وماذا يسوّغ للعالم أن يأمرنا بأن نطيع الطبيعة بدلا من أن نقاومها ؟

ومفكرون آخرون اعترضتهم هذه الصعوبات فعدلوا عن التوجه إلى العلوم المستقرة ، ولجأوا إلى علم آخر أطلقوا عليه اسم « علم الأخلاق » ونسبوا إليه ـ كما يشير اسمه ـ جميع صفات العلم وجميع صفات الأخلاق معا ، وراحوا يقولون فى زهو : « ها هى ذى المشكلة قد حلت ! » .

ولعمرى هذا ما يرجوه « علم الأخلاق » . إنه يعطى بلا حساب ما يطلبونه إليه : يعطى أخلاقا عقلية أو قلبية ، ويعطى أخلاقا لمنفعة الفرد أو لمنفعة الجماعة ، وأخلاقا للطبيعة وللشرف وللتعاون وللواجب ، حتى ليتحير المرء فى أن يختار منها واحدة . ولمّا كان كل ضرب منها مرتبطاً بنظام من الاستقراءات والاستنباطات ، فقد عرضوا علينا واحدة منها على أنها أخلاق علمية . ولسوء الحظ أنه ليس منها واحدة استطاعت أن تولد فى النفوس هذا الحد الأدنى من الاتفاق الذى يولده العلم . وهذا وحده يلقى

شيئا من الريبة على الصفة التى تزعمها لنفسها . والواقع أن المسيو « لڤى برول »[١] قد بيّن فى كتاب كان له بين الناس ذكر[٢] أن « علم الأخلاق » لما كان علما « معياريا » « normative » فليس له من العلم إلا اسمه ، وأنه تناقض فى الألفاظ ومخلوق ممسوخ . وعبثا يستعيرون اسم العلم والمظهر الخارجى للعمل العلمى : فإنهم متى جعلوا موضوع دراستهم ما ينبغى أن يكون بدلا مما هو كائن فقد تجاهلوا الروح نفسها المسيطرة على عمل العالِم .

إنى أحيل القارئ على ما أورده المسيو « لڤى برول » من حجج . لقد انقضى ربع قرن من المجادلات الحادة المحتدمة ، وما زالت حججه محتفظة بكل قوتها . إنى أعلم أن أنصار المذهب القديم يردّون بأن من الممكن أن تكون هناك علوم من أنواع مختلفة . وأن الآراء عن الخير والشر إذا بقيت عقلية يمكن أن تسمى علمية . ولكن من البديهى أن هذا محض لعب بالألفاظ ، وأن بين المذاهب الأخلاقية عند أرسطو ، و«زينون»[٣]، و«كانْت»، والمذاهب الوضعية عند «نيوتن»

---

(١) « لڤى برول » « Lévy-Brühl » ، كان أستاذاً لتاريخ الفلسفة فى السربون . له بحوث مهمة عن « ألمانيا منذ ليبنتز » و « أوجست كمت » و « الأخلاق الاجتماعية » . وهو أحد زعماء المدرسة الاجتماعية الفرنسية .

(٢) الكتاب الذى يشير إليه الأستاذ بابيه هو كتاب : « الأخلاق وعلم الطبائع والعادات » « La morale et la science des moeurs » .

(٣) « زينون » (٣٦٠ — ٢٦٣) فيلسوف يونانى أصله من قبرص . أسس المدرسة الرواقية فى أثينا . وكانت حياته مثلا أعلى فى سمو الأخلاق .

و«أينشتين» فرق فى الطبيعة . وما عسانا أن نستفيد من الجمع تحت لفظ واحد بين أشياء شديدة التباين كهذه ؟ قد تبيح اللغة هذا ، ولكن الحقيقة تأباه ، ويقف العلم ثابتا وهو يشهد موت هذه المذاهب التى انتسبت إليه دون أن تخرج من صلبه .

أمعنى هذا أن من المستحيل أن ندخل العلم مجال الأخلاق ؟

لست أنا الذى أقول قولا كهذا . يستطيع العلم أن يدخل مجال الأخلاق ، ويجب أن يدخله مع بقائه هو هو . إن أفكار المجتمعات المختلفة عن المثل الأعلى ، وعن الواجب ، وعن الحياة ، وبالجملة عن الخير والشر ، هى وقائع موجودة ثابتة نستطيع أن نلاحظها كما نلاحظ المنحنى الذى يرسمه نجم من النجوم ، أو الخط الذى يحيط بهيكل جسم من الأجسام . وإذا كان علم الأخلاق وهماً لاوجود له ، فإن علم الوقائع الأخلاقية « الإتولوچيا » « Ethologie » يمكن أن يكون علماً وضعيا مضبوطا كعلم الطبيعة والبيولوچيا . وحسبه لكى يكون علما أن يتذرع بالشجاعة والحزم لينفصل عن الفلسفة التى خرج منها كأسلافه ؛ وعليه أن يطلق أمله فى أن يكشف ، لأول وهلة وبعمل تجريدى أول ، عن القوانين العامة للعالم الأخلاق ، وأن ينهض بما يملك من همة وصبر لدراسة

الوقائع ، وأن يفرض على نفسه منهجا متشددا متبصرا كالمناهج التى تستخدم فى دراسة العالم الطبيعى . نعم إن المهمة شاقة ، لأن احتمالات وقوعنا فى الخطأ تزيد كلما زاد اشتغالنا على وثائق إنسانية . ولكن الجهود الخصبة التى بذلها التاريخ الحديث قد عملت فى أناة على تجديد منهج نقدى ليس أقل متانة من أى منهج علمى آخر . وإن من المؤرخين أمثال « كركوبينو » أو « بيكار » من بلغوا فى تمحيص الوقائع الإنسانية من التحوط ـ وقد كدت أقول من التوجس والحذر ـ الدرجة التى يمكن أن يصل إليها مسيو « رابو » « Rabaud » نفسه إذا أراد أن يمحص واقعة بيولوچية . ويوم تصح عزيمة علماء الاجتماع على مراعاة هذا المنهج نفسه فلن يكون علم الوقائع الأخلاقية أقل متانة من أى علم من العلوم التى سبقته . وإنى لوطيد الأمل فى أن ترى القرون القادمة تطورا فى علم الاجتماع شبيها بالتطور الذى نشاهده الآن فى علم الطبيعة : يومئذ يكون العلم قد وسّع مجاله ومدّ رحابه ، فيصبح كما أراده « أوجست كنت »[1] السيد الروحى للعالم الحديث ، ويسيطر بيقينه على آلاف المشكلات المتروكة اليوم لهاتيك النظرات العقلية الجليلة التى لا تخلو مع ذلك من زعزعة وقلة يقين .

غير أننا حتى لو تجرأنا فى استباق الحوادث ، فذهبنا إلى افتراض أن علم الوقائع الأخلاقية ، قد شب وخرج نهائيا من طور

---

(١) انظر هامش ٣ ص ٦٢

طفولته ، فلن يتغير وضع المشكلة العملية التى تعنينا ، بل تظل هى هى بنصها وعباراتها .

لنتصور أن «الإتولوجيا» تقول لنا : إن الواقع يشهد بأن الأفكار الأخلاقية عن القتل والانتحار والسرقة والكذب تتغير طبقا لهذه الواقعة أو تلك من الوقائع ، وأن التصورات المتعلقة بالأسرة وبالمدينة تتبع فى بيئة معينة هذا المنحنى أو ذاك . صحيح أن أمثال هذه النتائج التى نلمحها ولا نراها ستكون رائعة . ولكن العلم الذى يقيد تلك الوقائع وتلك العلاقات لن يسمح لنفسه بأن يستخلص منها أمرا ولا نهيا . إنه إنما يهدى إلى السبيل التى سلكها الناس ، ولا يستطيع أن يأمرنا بما يجب علينا أن نسلك من سبل : تلك مهمته؛ فإن تجاوزها انقلب من علم الوقائع الأخلاقية إلى « علم الأخلاق » ، وعدنا بذلك إلى سيرتنا القديمة.

وللتخلص من هذه الصعوبة عمد «دوركايم»[1] إلى تفرقته المشهورة بين ما هو طبيعى ، أو صحيح أو مطرد « normal » وما هو « معتل » أو مرضى « pathologique » . يرى « دوركايم » أن علم الاجتماع يجب أن يصل إلى أن يحدد لكل فئة اجتماعية حالة « طبيعية » شبيهة بحالة

---

(١) « دوركايم » Durkheim (١٨٥٨ـ١٩١٧) زعيم المدرسة الاجتماعية الوضعية الفرنسية ؛ وله بحوث مهمة فى الاجتماع والأخلاق والتربية ؛ وجه أكبر عنايته إلى إقامة أخلاق وضعية بالمعنى الصحيح . أشهر مؤلفاته : « قواعد منهج العلم الاجتماعى » و « توزيع العمل الاجتماعى » و « الانتحار » الخ .

الصحة فى الفرد . وإذا تم ذلك فقد وجدنا أمام أبصارنا مثلا أعلى ، ولم يبق علينا إلا أن نبلغه .

ولكن تلك النظرية الطريفة ترد عليها اعتراضات خطيرة : إنها أخذت الطبيعى مقابلا للمرَضى . ولكن كل ما هو غير طبيعى ليس بالضرورة مرضيا . فإذا جرينا على قاعدة « دوركايم » استهدفنا لأن نحمل على محمل الذم ما خرج عن المألوف فى الحسن والقبح على السواء. وصعوبة أخرى : لا بد لنا أن نعتمد على أمثلة من الماضى لكى نحدد النوع المسمى بالطبيعى . وهذا قد يسد طرق التقدم : مثال ذلك أن دوركايم يشرح لنا فى صفحات مشهورة أن انتشار الجرائم فى مجتمعاتنا إلى درجة معينة أمر طبيعى . وهذا أمر لا يخامرنا فيه شك إذا نظرنا إلى ما حدث حتى اليوم . ولكننا لو فرضنا أن العلم وَجد غداً وسيلةً لتقليل عدد القتلة واللصوص ، فهل ننكر هذه الوسيلة زاعمين أن تقليل عدد المجرمين أمر غير طبيعى ، وأنه إذن شىء مَرَضى ؟ وأخيرا ماالذى يسوِّغ لعلم الاجتماع أن يقرر أن حالة « الصحة » حسنة ومرغوب فيها لمجتمع ما . إن المجاز لأول وهلة يجيز الفكرة : لأننا نقول إن الصحة فى الأمور الفزيولوجية شىء مرغوب فيه بلا نزاع .

ولكن لو فُرِض أنها كانت مرغوباً فيها فليس علم البيولوجيا هو

الذى يقول ذلك : ليس لدى البيولوجى شئ يقوله لمن يقبلون أن يتحملوا الآلام والموت نفسه باسم مثل أعلى يفشدونه . وكذلك فى مجال الأخلاق : لا ندرى ما عسى أن يقول علم الاجتماع لفئة من الناس قصدت إلى الشذوذ عمدا . لكى ينكر علم الاجتماع هذا القصد يجب أن يكون محتفظا فى جعبته بتعريف علمى للخير والشر . ولكنه لكى يعطى تعريفا كهذا يجب أن ينقلب علما تشريعيا : وإذن فنحن نجد أنفسنا وجها لوجه أمام الصعوبة التى أردنا أن نتفاداها .

***

خير لنا أن نكون أكرم نفسا ، فنعترف بأننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نمس ما هو روح البحث العلمى . إن تحويل المشاهدة أو الخبر إلى أمر أو نهى يحتاج إلى معجزة ؛ والعلم لا يصنع المعجزات . يستطيع العلم أن يدلنا على الأفكار الأخلاقية عند الفئات الإنسانية ، ويستطيع أن يدلنا على كيفية تطورها ، ولكنه لا يستطيع أن يرشدنا إلى قيمتها ولا إلى ما كان ينبغى أن تكون . فلنتوطن أنفسنا على هذا ولا نطلب إلى العلم ما لا يسوغ له أن يعطينا .

ولكن ليس معنى هذا أن العلم يعجز عن التأثير بطريق غير مباشر فى الحقائق الأخلاقية . إننا نستطيع أن نستخلص التطبيقات من علم

الوقائع الطبيعية . وإذا تركنا الآن النتائج المباشرة لمسلمة « الحتمية » «déterminisme» التى سنتحدث عنها بعد[1] ، وفرضنا أننا اكتشفنا الأسباب التى تؤدى إلى زيادة عدد حوادث السرقة والقتل ، تيسر لنا بداهةً أن ننتفع بهذه المعرفة فى تخفيض عدد تلك الجرائم . ولوفرضنا أننا استطعنا يوما أن نتكهن تكهنا يقينيا بالاتجاه الذى سيمضى فيه تطور الأخلاق فيما يتصل بالطلاق والملكية والمساواة ، ساغ لنا عندئذ أن نأمل بأن نرى خصوم الأفكار التى قدّر لها الانتصار تخف حدتهم فى معارضتها إذا عرفوا أنها لا مفر منها . لا أحب أن أحط من شأن هذا الأثر الذى درسته طويلا ، والذى يمكن أن يكون عظيما ، ويحلو لى أن آمل أن يكون أثرا طيبا . ولكن هناك على كل حال ملاحظتين ضروريتين : الأولى أن هذا الأثر الطيب افتراضى محض . والثانية أنه حتى لو تحقق فلن يكون إلا أثرا غير مباشر ، ولن يكون العلم باعثه ولا صاحبَ الفضل فيه .

أقول إن الخير فى هذا الأثر افتراضى : والواقع أنه لا شىء يضمن لنا أن مجتمعا ينتفع بالاكتشافات الأتولوجية لكى يستخلص منها إصلاحات نافعة . ولنفرض أنه ثبت ثبوتا قاطعا أن تعاطى المسكرات يزيد عدد الجرائم . فهل تكفى هذه الملاحظة فى حمل تجار الخمور على العدول عن

---

(١) فى الفصل الثامن .

تجارتهم ؟ ولنتصور أيضا أنه ثبت على وجه لا يحتمل الشك أن مذهب الحماية الصناعية فى مجتمعاتنا الحاضرة سبب من أسباب الحرب . فهل تعدل الصناعات المحمية بهذا عن تلك الحماية ؟ . إن ثمة فرقا بين المعرفة والإرادة : نقرأ اليوم إحصائيات تجعلنا نتبين بجلاء أن نظام العقوبات الذى يطبق عندنا على المراهقين لا يردعهم عن الإجرام بل يحملهم على التمادى فيه . ويقرأ كثيرٌ من الناس هذه الإحصائيات وهم يفكرون فى شىء آخر . وإن الأرقام تثبت أن تقييد الدعارة باللوائح يخلق فى بلدنا مباءات للفساد الجسمانى والأخلاق . ويُلقى النـاسُ نظرة عابرة على هذه الأرقام ، ويتركون اللوائح القديمة تسير سيرتها الماضية . واعتقادى أن تقدم علم الاجتماع سيزيد معارفنا يقيناً ووسائلنا للعمل قوةً . ولكن ليس من المؤكد بداءةً وقبل التجربة a priori أن رغبتنا ستصير بهذا أشد وأقوى .

يمكن أن يقال أيضا إن فكرة واضحة عن التطور الذى يسوقنا إلى هذه الناحية أو تلك ينبغى نظرياً أن يؤدى إلى الاتحاد وجمع الكلمة أكثر من ذى قبل . وقد يقال إن دعاة مُثُل من المُثُل العليا ، متى عرفوا أنه تخلف عن الزمن ، انضووا تحت لواء الفكرة التى قدّر لها الغلبة . ولكن ما هذا إلا افتراض يجوز أن تؤيده الوقائع ؛ ويجوز

أيضا أن يكون أنصار المثل الأعلى مخلصين مؤمنين بقضيتهم ، لا يتخلفون عن الذود عنها ، ويناضلون من أجلها إلى النهاية ، حتى ولو عرفوا أنها خاسرة لا يرجى لها نجاح .

ولكن مهما يكن الأمر فإن هناك شيئاً لا نزاع فيه : وهو أن علم الوقائع الأخلاقية ، من حيث هو علم ، ليس له علينا سلطان . فهو لا يأمرنا أن نفعل شيئا ولا ينصح لنا أن نجمع كلمتنا على شيء . إنه يستطيع أن يقول لنا : ها هو ذا سبب هذا النوع أو ذاك من الجرائم . ولا يستطيع أن يقول لنا : افعلوا شيئا فى هذا السبب ! ويستطيع أن يقول : هاهى ذى فكرة فى طريقها إلى النصر . ولا يستطيع أن يقول لنا : تخلوا عن الفكرة المخالفة ! أما المصلحون الاجتماعيون ـ وسيأتى يوم يحلون فيه محل المهرجين من السياسيين ضيق النظر ـ فعلم الاجتماع يعطيهم وسائل للعمل ولا يعطيهم همة وثابة ولا أغراضا واضحة .

والأمر الأهم ، الأمر الذى نجد أنفسنا دائما مضطرين إلى أن نعود إليه ، هو كيف نختار مثلا أعلى ؟ إن مذهب الأخلاق القديم يدلنا لا إلى مثل أعلى واحد ، بل إلى عشرة ؛ ولكنه لم يكن علما . أما «الإتولوجيا» ، أعنى علم الوقائع الأخلاقية ، فهى علم ؛ ولكنه لا يعطينا أى مثل أعلى .

أيلزمنا إذن أن نسلم بأن العلم ، ومهمته المعرفة المحضة ، عاجز بماهيته عن أية هداية للإنسان ؟ وأليس لنا بدّ من أن نعترف بأن العلم يضيء العالم ولكنه يترك فى القلوب ظلاما !

من الناس من لا يترددون أمام هذه النتيجة العابسة : فهذا مسيو « لڤى برول » ، يجيب بابتسامة على صرخة الجزع المنبعثة من طالبى مذهب أخلاق جديد قائلا لهم : لا نستطيع أن نعطى جماعة من الجماعات إلا الأخلاقَ التى اصطفتها من قبل . كلمة موئسة ! ولكنها لا تخلو من عمق ومن اقناع ، وإنْ يكن فيها إثارةٌ للمشاعر . وكأنّ المتشوقين إلى المثل الأعلى يقفون على عتبة العلم فيجدون أمامهم جملة خطها القدر المحتوم : « اتركوا كل أمل ! » .

مهما يكن فى هذه النتيجة من منطق وصرامة فعلينا أن نعترف أولاً بأن فى أعماق نفوسنا شيئا يرتفع بالاحتجاج عليها : فمنذ بضعة قرون غيّر العلم فكرتنا عن الكون وعن أنفسنا : طارد الأساطير القديمة ، و« الكسموجونيات »[1] المقدسة ، ونقّب عن اللامتناهى فى العظم واللامتناهى فى الصغر ، وأخضع لانتصاراته أفكاراً كانت تبدو ثابتة ، كفكرة الزمان والمكان ، ولم يستطع شىء أن يقاوم توثبه . أيكون مآل كل

(١) « الكسموجونيات » نظريات فى تكوين العالم .

هذا العمل البديع أن يخفق على عتبة العالم الأخلاقى ! وهذه التغيرات الهائلة فى مجال العلم ألا يصاحبها أى تغيّر فى مجال الأخلاق ! وأنّى لنا أن نعتقد بأن هنالك انفصالا تاما بين الفكر والعمل ، بين الحق والخير ! إن علم الاجتماع الناشىء يرينا أن مذاهب الأخلاق حقائق متحركة وأنها دائما فى طريقها إلى التغير . أنكون مضطرين الآن إلى أن نسلم بأن الثورة العلمية ستنقضى دون أن تترك فى تلك المادة المتغيرة أدنى أثر ؟ ما أبعدَ هذا عما يشبه الحق ! كل شىء يؤثر فى الأخلاق : البيئات وأنماط الحياة والأحوال الاقتصادية والفن والأديان والفلسفات ؛ فهل يبقى العلم وحده بعيداً عن التأثير فى الأخلاق ؟

أعلمُ أن بعض الناس سيردّون علينا بأننا نحن الذين نقول هذا . والواقع أننا نحن الذين صرحنا بأنه لا علم إلا عما هو « وضعى » : ويبدو أننا بهذا قد سددنا بأيدينا الطريق إلى رغباتنا . إننا نحن الذين نصرح بأن المشكلة جوهرية وأن حلها مستحيل .

ولكن مشكلةً ما إذا بدا حلها مستحيلا ، فذلك لأنها فى الغالب لم توضع وضعاً صحيحا . وأعتقد أن هذا يصدق على المشكلة التى نحن بصددها : إذا نظرنا إلى العلاقات بين الأخلاق والعلم على نحو ما نظر إليها أسلافنا ، لم نستطع أن نسير أبعد مما ساروا . إننا من وجه ما قد

نقطع شـوطا أقل مما قطعوا : لأن منهجنا يُلزمنا بتدقيقات وقواعد لم يعهدوها . ولـكننا إذا غيرنا نص المشكلة ، ووضعناها وضعا علميا ، وجدنا الحل الذى كان ينفلت منهم معروضا من نفسه علينا ؛ إنه ماثل أمامنا ، ويعيش تحت سمعنا وبصرنا ؛ إنه منقوش فى الواقع ، قبل أن يكون مسجلا فى الـكتب ؛ ولا حاجة بنـا إلى أن نخترعه ، بل علينا أن نشاهده .

الفصل الرابع

أخلاق العلم

بذل المفكرون حتى اليوم جهودا كثيرة لإقامة علم للأخلاق . وكانت جهودهم توغلا فى مأزق لا مخرج منه ، لأنه لا يمكن أن يقوم علم بما هو « معيارى » أو « تشريعى » « normatif »[1] . ولكن لنقلب المشكلة فنتساءل : إذا لم يمكن إقامة علم للأخلاق ، أفلا يمكن أن يكون هنالك أخلاق للعلم ؟

أعتقد أن وجود أخلاق للعلم أمر ليس ممكنا فحسب ، بل هو موجود بالفعل . وأخلاق العلم عبارة عن جملة الأفكار المعيارية التى حملت

---

(١) بعض العلوم يكون القصد منها تفسير الظواهر ، كعلوم الطبيعة ، فسميت من أجل ذلك « علوماً تفسيرية » « sciences explicatives » ؛ وبعضها يكون الغرض منها وضع القواعد وصوغ المعايير ، كالمنطق والأخلاق ؛ وقد أطلق عليها « ڤندت » Wundt اسم « العلوم المعيارية » « sciences normatives » المعرب

الناس على السير فى طريق البحث العلمى ، والتى جعلتهم يحددون مناهجه ويوثقون تقدمه .

وما دام الناس يطلبون إلى العلم أن يصنع مثلا أعلى برمّته ، فهو يتهرّب من هذه المهمة ، لأن له مهمة أخرى . ولكن إذا سألناه أىُّ مثل أعلى يستوحيه وأى المبادىء هى مبعث نشاطه الفعلى أجابت الوقائع وكشف العمل عن العامل .

وقد يقال إن أخلاق العلم هذه لم يَصُغها أحد بعدُ ، ولم يركزها أحد فى مذهب ؛ وهذا صحيح . ولكنى أود أن أبين أن هذا ليس انتقاصا ولا بدعا .

اعتدنا بتر بيئتنا الفلسفية أن لا نطلق اسم الأخلاق إلاّ على الأفكار التى رتبها أهل الصنعة ترتيبا علميا . نقول : أخلاق أفلاطون[1] ،

---

(١) «أفلاطون» (٤٢٧ـ٣٤٧ ق . م) فيلسوف يونانى كبير . تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو ، كتب محاوراته الفلسفية فى أسلوب هو غاية فى الروعة والبهاء . وتكاد تكون شخصية سقراط مدار تلك المحاورات ، ويكاد يكون الفكر المسيطر عليها نفحة من نفحات النظر السقراطى الباهر . ولكن أفلاطون كان شاعراً بقدر ما كان فيلسوفاً ، فاستطاع أن يفيض من روحه على تعاليم أستاذه وأن يمدها بما لعبقريته من قوة وعمق وسناء . وأفلاطون منشىء المذهب المثالى ، وهو شيخ الطامحين إلى المثل الأعلى فى كل شىء . وإذا كان هذا « الفيلسوف الإلهى » قد أخطأ فى السياسة فمرد هذا الخطأ نفسه إلى رغبته المتأججة فى أن يجعل « للخير » على الإطلاق سلطاناً على النفوس ـ المعرب .

وأخلاق أرسطو[١] ، وأخلاق «كانْت»[٢] ، وأخلاق «كُمْت»[٣] ونكاد نميل إلى الاعتقاد بأن كل شيء في الأخلاق قائم في تلك المذاهب الكبيرة المرتبة والموقع عليها !

---

(١) «أرسطو» (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م) أكبر العلماء والفلاسفة في العصور القديمة . تلمذ على أفلاطون ، وواصل تعاليمه المثالية ؛ ولكنه جعل فيها للتجربة والمشاهدة نصيباً أكبر مما كان لها عند أفلاطون . ثم استقل أرسطو بالمدرسة الفلسفية الكبيرة التي أطلق عليها اسم « المدرسة المشائية » . وقد ألف أرسطو كتباً ورسائل كثيرة أهمها : « ما بعد الطبيعة » و « العلم الطبيعي » وكتب في المنطق وعلم النفس والأخلاق والسياسة الخ ، فأحاط بمعارف عصره وأصبح معلماً لا لبلاد اليونان وحدها بل للإنسانية كلها ـ المعرب .

(٢) « كانت » Kant (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) أكبر فلاسفة الألمان وأحد أساتذة الفكر الإنساني . حول أن يقيس قدرة عقولنا ، وأن يرسم لها حدودها ومداها ؛ فوضع العقل الإنساني موضع النقد الدقيق ؛ ومن أجل هذا أطلق على فلسفته اسم « الفلسفة النقدية » . والمذهب الكانتي مبسوط في ثلاثة كتب على الخصوص : الأول « نقد العقل الخالص » أي نقد مبادئ العلم ؛ والثاني « نقد العقل العملي » أي نقد مبادئ الأخلاق ، والثالث « نقد الحكم » أي نقد مبادئ الذوق . ويعد كانت أكبر الأخلاقيين في العصور الحديثة ـ المعرب .

(٣) « أوجست كت » Auguste Comte (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) فيلسوف فرنسي . مؤسس مدرسة فلسفية تسمى بالمدرسة « الوضعية » « positiviste » كما أنه مؤسس العلم الوضعي للجماعات أو « علم الاجتماع » . أهم كتبه : « دروس في الفلسفة الوضعية » و « قواعد العقيدة الوضعية » و « السياسة الوضعية » وأخيراً « دين الإنسانية » . وقد كان لهذا الفيلسوف تلاميذ كثيرون أغلبهم من العلماء والأطباء ؛ ولكنهم لم يتابعوه على العموم في الجزء الأخير من تعاليمه وهو ما سماه « دين الإنسانية » ـ المعرب .

ولـكن من النتائج الأولى التى اكتسبناها من علم الوقائع الأخلاقية إزالةهذا الوهم : الأخلاق عند مَن يلاحظها ملاحظةعلمية هى التمييز بين الخير والشر على نحو ما يتجلى فى الوقائع الاجتماعية . والفلسفات إحدى هذه الوقائع ؛ ولـكن هناك وقائع أخرى تَعدِلها أهميةً وخطراً .

من المستبعد أن يكون فيلسوف كبير أوثقَ دليل يهدى من يريد معرفة الأخلاق فى عصر أو بلد معين : إن عبقرية الفيلسوف تحمـله على أن ينظر إلى الأشياء نظرة شخصية ، وعلى أن يهمل بعض الوقائع ، وأن يبرز بعضها الآخر . صحيح أن أجمل مذهب ليس إلا انعكاسا لفترة من الزمان أو لبيئة من البيئات ؛ ولـكنه مرآة تشوّه الملامح .

ليست الأخلاق اليونانية محصورة فى مذهب أفلاطون ولا فى مذهب أرسطو ، ولا الأخلاق الـكاثوليكية محصورة فى مذهب القديس « توما » . فالصـــورة الوضاءة التى يرسمها الفيلسوف شىء ، والحقيقة التى تؤثر مباشرة فى الوقائع ، وإن لم يُعبّر عنها بالألفاظ شىء آخر . هذه الحقيقة المؤثرة يبحث عنها عالم « الإيتولوجيا » فيما ابتدعه المجتمع من نظم كبرى كاللغـات والشرائع والفنون والآداب والعادات : هنا يكشف عالِم الإيتولوجيا القوى العميقة التى تتحكم المذاهب من داخلها أو خارجها ، وتقود الجماعات الإنسانية ، وتـكون أغلب الأحيان منقوشة فى الوقائع

قبل أن تودع فى العبارات .

ولننظر مثلا فى الأخلاق التى تنظم الأسرة فى مجتمعاتنا : إن اليونانى والرومانى والفرنسى يمارسون الزواج من زوجة واحدة . لنسألهم باسم أى مبدأ فلسفى يخضعون لهذه القاعدة ؛ عندئذ نجدهم فى حيرة لا يجيبون . ولكن أخلاق الزواج بامرأة واحدة ، تلك الأخلاق التى تلهم قانونهم المدنى والجنائى كما تلهم عاداتهم وآدابهم ليست مع ذلك أقل قوة . إن زواج الرجل من ذويه الأقربين ، محرّم عند هؤلاء اليونان والرومان والفرنسيين . فهل لهذا التحريم صلة بنظرية أفلاطون فى « المثل » ، أو بنظرية أرسطو فى الوجود ، أو بالخير الأسمى عند «الرواقيين» أو «الأبيقوريين» ، أو بمبادىء القديس «توما» ، أو بقواعد «كانت» ؟ أعتقد أن من العسير أن نجد صلةً من هذا القبيل ؛ ولو وجدت لكانت لفظية واهنة . ولكن الأخلاق التى تستنكر الزواج من المحارم l' inceste تلك الأخلاق المسطورة فى القانون وفى العادات ، ليست أقل من المذاهب الفلسفية قوة وعمقا ، وإنْ لم تكن معروضة فى مذهب قد أُلِّف تأليفا منطقيا .

ولننظر أيضا فى أكبر تحول عرفته المجتمعات الغربية : وهو إلغاء الرق . لو سئلنا اليوم فى القرن العشرين باسم أى مذهب نستنكر الرق

استطعنا أن نجيب جوابا لا يخلو من منطق : إن ذلك باسم فلسفة القرن الثامن عشر التى أعلنت حقوق الإنسان . ولكنا نعلم حق العلم أن تلك النظرية لم تحرر إلا بعد حين ، أى بعد أن كانت المهمة قد تمت ، وبعد أن كان الرق كله قد اختفى أو كاد يختفى من مجتمعاتنا . ولكن لنبحث فى التاريخ عن المذاهب التى أدت إلى إلغاء الرق . يحيل بعض المفكرين إلى الأخلاق الرواقية : ولكن « الرواقيين »[1] كان لهم أرقاء . ويحيل البعض الآخر إلى الأخلاق المسيحية : ولكن الكنيسة كان لها أرقاء . ولقد كان المفكرون من جميع المدارس يجدون دائما صيغا مرنة تعينهم على أن يراعوا النظام العتيق ، وكأنهم يحملون عليه بإحدى اليدين ، ويؤيدونه باليد الأخرى . ابحث ما شئت فى التاريخ ؛ فإنك لن تجد

---

(١) « الرواقيون » « Les Stoïciens » (القرن الثالث قبل الميلاد) أصحاب مدرسة كبيرة من المدارس الفلسفية اليونانية ، اشتهروا بمذهب أخلاقى بلغ مبلغاً كبيراً من القوة والنبل والتأثير . ويتلخص المذهب فى أخلاق الواجب ، التى تجعل شعارها أن يعمل الإنسان ما يجب من غير نظر إلى عواقب العمل . وفى تفاصيل الأخلاق الرواقية أمور كثيرة قد ينازع فيها ولكن فى المذهب مباينة صريحة لأخلاق اللذة التى دعا إليها « إبيقور » فى نفس ذلك العصر . ومن حسن الحظ أن أجل تعاليم الرواقية قد بقيت على الأجيال بفضل ما خلفه « إبكتيتوس » و« سنكا » و« مرقس أوريليوس » فى أقوالهم التى تتضوع بعبير التقوى وعزة النفس واحتقار الموت . وقد يؤخذ على الرواقيين ما فى سلوكهم من كبر واعتزاز وازدراء للحياة . ولكن العصور القديمة كلها لم تبلغ قط ما بلغوه من الشعور بكرامة الإنسان . ــ المعرب .

ذلك المشهد الرائع ، مشهد مذهب يقوم فيقضى على الرق . ولكن من حسن الحظ أن هنالك أخلاقاً واقعية كانت تعمل وتؤثر بينما كان الفلاسفة يتكلمون ويكتبون . وتلك الأخلاق الواقعية هى التى أنهمت « نيرون »[1] ، ذلك المحسن إلى الإنسانية ، أن يحقق ذلك العمل الثورى العظيم الذى أباح للرقيق إذا عومل معاملة بالغة القسوة أن يرفع شكواه إلى القضـــاء ، وألهمت الفرارات الكثيرة التى أصلحت حال الرقيق ثم الموالى serfs . فماذا كانت حقيقة تلك الأخلاق الواقعية ؟ لو سئل الذين كانوا يخدمونها عن تعريفها لاعترتهم حيرة : لأن المشرعين الرومان الذين كانوا أول من عمل لهذه الأخلاق ، يقعون فى متناقضات تستدعى الإشفاق حين يستهدفون إلى الإشارة بهذا الصدد إلى شىء من المبادىء . ولكننا نحن بعد حين نرى النهج الذى سلكوه والذى انتهى إلى حقوق الإنسان . إن الأخلاق الصامتة المتضمنة فى جهودهم المتواصلة أقوى من العبارات المزعزعة التى نقرأها فى كتب الفلاسفة .

وإذن فليس علينا من بأس إذا لم تنتظم أخلاق العلم بعد فى مذهب ولم تتركز بعدُ فى قواعد . بل لن يزعجنا أن نرى أن بعض العلمـاء لم

---

(١) « نيرون » Néron امبراطور رومانى عاش فى القرن الأول للميلاد واشتهر بقسوته وفظاعته .

يلبوا دعوتها عن وعى وشعور . لم يكن لهذه الأخلاق نُظّارها ، (ses théoriciens) وإنما كان لها عُمّالها (ses artisans) ، ولم تعبّر عن مثلها الأعلى باللفظ وإنما خدمته بالفعل ؛ إنها متضمّنة فى وجود العلم وفى نفس تطوره .

ذلك أن للعلم مقصده الذى يشير إليه حين يسعى إليه . وإن شئنا قلنا إن للعلم حقه ، لأننا نستطيع أن نطلق هذا الاسم على المنهج العقلى الذى تهيؤه جهود الباحثين الموصولة . فلندرس هذا المقصد ، ولندرس هذا الحق ، فنتبين حينئذ أنهما يستلهمان مثلا أعلى ، وأنهما يفترضان ويتضمنان نظرة عن عظمة الإنسان وجمال الحياة .

وتلك الدراسة هى التى أريد أن أخط خطوطها الأولى فى الصفحات التالية . ولكنى أريد قبل الشروع فيها ، أن أنوّه بأنها من طبقة الدراسات الوضعية بالمعنى الدقيق ، وأن المثل الأعلى الذى سنحاول بلوغه ليس من المثل العليا المتخيلة التى خلقها ، ثم فرضها ، أو أوحى بها علماء تجاوزوا مجالهم الخاص ، وإنما هو المثل الأعلى الذى يوحى إليهم ، ويستحثهم على العمل حين يبقون فى مجالهم لا يعدونه . ولا يظن أحد أن العلماء يبغون أن يفرضوه علينا مغتصبين لأنفسهم وظيفة المشرعين ، بل إنهم لا يبالون بأن يزينوه لنا ، ولا أن يخلعوا عليه ثوبا قشيبا خلابا

بل ولا أن يعبروا عنه بالكلام ، وإنّ منهم من يترسمه ويتأثره دون أن يراه . أما نحن فقد أخذنا فى تحليل العمل الذى قاموا به انكشف لنا المبدأ الذى أعانهم على إتمامه .

وإذن فنحن الآن ، وسنظل إلى النهاية فى منطقة الوقائع لا الأوهام، نلاحظ حقيقةً ما ملاحظة علمية ، وفقا للقواعد التى يجرى عليها العلماء فى البحث النقدى .

أطلتُ القول فى هذه الأمور . لأنى لا أحب أن أقع فى الخلط الذى أشرت إليه فيما سبق ، ولا أن أنحرف دون أن أشعر عن موقف العالم إلى موقف المشرع . وأرجو أن أكون قد تجنبت هذا الخطر فيما عالجت حتى الآن . وأحسب أننا حين نقف بإزاء واقعة اجتماعية كبيرة ، كالخلق العلمى، فنبحث عما انطوى فيها من أخلاق، نكون مخلصين للمنهج الاجتماعى الدقيق . وغنى عن البيان أن التخطيط الذى أحاوله هاهنا بسيط جدا وبعيد عن الكمال . وينبغى أن يعود الباحثون إليه من جميع وجوهه بالتعديل أو التنقيح أو الزيادة ، ولكنه بحث علمى فى روحه .

ومهما يلحظ الناس فيه من ثغرات ومهما يتبينوا فيه من غلطات فإنى أكون مغتبطا إذا وافقنى القارئ على الأمرين التاليين :

الأول : أن علم الأخـلاق ليس إلا وهما ، فى حين أن أخـلاق العلم شىء واقع وحقيقة حاصلة .

الثانى : أن أخلاق العلم هذه كما نستطيع أن نراها اليوم تعدل فى جمالها أو تتجاوز ماقدمه المفكرون لنا من مذاهب الأخلاق قبل العصر العلمى . وهى أيضا قادرة على أن تنظم حياتنا وأن تثير حماستنا .

obeikandl.com

الفصل الخامس

كرامة الفكر

أول فكرة ينطوى عليها تقدم العلم نفسه هى أن الكرامة الإنسانية عبارة عن جهد العقل لبلوغ الحقيقة .

وليس من المهم أن يقول لنا العلماء هذا : ففى سيرتهم تأييد للفكرة . لنعتبر جميع هؤلاء الرجال الذين أقبلوا على دراسة الطبيعة وكانوا بالأمس قلة وهم اليوم نفر عديد . ما الغاية التى ينشدونها من جهودهم ؟

غايتهم كما قلنا هى المعرفة ولاشىء غير هذا. ذلك أن العلم ، العلم الصحيح بحث مبرأ من الأغراض ، لايعنيه حين يرى مشكلة أن يعرف هل يكون لحلها نتائج عملية أو لايكون ، ولا يبالى إلا بأن يستعيض عن جهل بعلم . وهذا ما أبدع فى بيانه مسيو « لانجڤان »[1] فى محاضراته القيمة عن

---

(١) « لانجڤان » Langevin عالم فرنسى من علماء الطبيعة المعاصرين وأستاذ علم الطبيعة فى « الكليج دو فرانس » . له مباحث مشهورة عن نظرية الإلكترون وعن الكهرباء ـ المعرب .

العلم ومذهب الحتمية ، إذ نهض فى قوة محتجا على ماسماه « النظرة الظاهرية للعلم » وعلى أولئك الباحثين من علماء الطبيعة الذين يريدون أن يقنعوا بمشاهدة الوقائع والتكهن بها ، ويأبون أن « يفسروا » ، أى يأبون بعبارة أخرى أن يفهموا . وقد قابل «لانجڤان» فى تلك المحاضرات بين أصحاب المبدأ المشهور مبدأ « اللاتحديد » « indétermination » و بين « المفسرين الذين لا يرعوون » (les explicatifs impénitents) أمثال «أينشتين» ، مبيناً أن هؤلاء المفسرين وحدهم «فى الطريق الملكى لعلم الطبيعة » ! ولم ؟ لأن فوق الفائدة العلمية التى يمكن أن تقنع بالتكهن يوجد « هـذا النوع من الاستطلاع البسيط المركوز فى نفوسنا ، والذى يحثنا على محاولة الفهم ، ولولم يكن ينفعنا فى شىء »

لعل أجمل وأروع الكشوف العلمية ما تم منها فى علم الفلك . فما التطبيقات العملية التى خرجت من تلك الكشوف ؟ لم ينتج عنها بعد أية آلة من شأنها أن تبدل أحوال معاشنا . وهذه الكشوف مع هذا نموذج للانتصار العلمى . ولم ؟ لأنها غيرت فكرتنا عن الكون ، ولأنها جعلت الغلبة للعقل فى مجال كان يبدو بعيداً عن متناول العقول .

والعلم إنما هو هذا السلطان ، سلطان العقل ، وهذا الجهد المبذول لتناول الوقائع وترتيبها فى عالم المعقولات . هذا شأن العلم : فالمعرفة هى الغاية الوحيدة عند عالم الطبيعة أو عالم البيولوجيا أو عالم الاجتماع . وما معنى هذا

إلا أن هؤلاء الباحثين جميعا أصحاب مثل أعلى واحد يجعل الصدارة للعمل المظفر عمل الفكر ؟

حق أنه يبدو أن هذا المثل الأعلى مشترك بين العلماء والفلاسفة والمؤمنين بالأديان. ولكننا متى تعمقنا النظر إلى الأشياء ظهر لنا فارق كبير فى الجوهر.

صحيح أن أهل الإيمان والفلاسفة قد يوافقون « پسكال »[1] على أن كرامتنا كلها فى الفكر ؛ وهم بهذا لا يبتعدون عن العلماء؛ ومن أجل هذا كانوا أسلافا للعلماء مهدوا لهم الطريق . ولكن إذا كان أولئك وهؤلاء لا يجدون عسرا فى الاتفاق على أن «الصدارة لما هو روحى » فإن اتفاقهم يقف عند هذا الحد : لأن العلم يرى البحث شيئا لا متناهيا ، و يجعل عظمتنا فى هذا الفتح الذى لا يعرف له حد . أما الأديان، بل المذاهب الفلسفيه، فلاهتمامها بما هو مطلق ، تحاول أن توقف الذهن عند مواضع حاسمة لا يبرحها .

كلنا نعرف عن ظهر قلب الصفحة العظيمة التى كتبها « پسكال »، وقال

---

(١) « پسكال » Pascal (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢) فيلسوف فرنسى وعالم عبقرى وكاتب منقطع النظير . نبغ فى الرياضيات والطبيعيات ؛ واخترع عدة آلات فى جملة أغراض ؛ وقام بتجارب مشهورة عن ثقل الهواء وغير ذلك . ويعد كتابه « الرسائل القروية » الذى شنع فيه على أخلاق اليسوعيين وسياستهم ، نموذجاً للهجاء ، مما تجلى فيه من فصاحة العبارة وقوة المنطق وبراعة السخرية . أما كتابه : « الخطرات » فعبارة عن مواد جمعها لتأليف كتاب كبير كان يرمى منه إلى تشكيك الناس فى العقل وفى العلم لكى يلقوا بأنفسهم فى أحضان الدين . ـ المعرب .

فى مطلعها : « فليتأمل الإنسان الطبيعة بأسرها فى جلالها البالغ السمو والتمام ! . . » ذلك مطلع أملته روح عالم ؛ وتلك الروح نفسها هى التى سادت «پسكال» حين حاول أن يذكرنا بما فى الوجود من ثراء لا ينفد. ولكن پسكال بعد أن وثب وثبة رائعة ، تحمل أذهاننا من اللامتناهى فى العظم إلى اللامتناهى فى الصغر ، ومن الأكوان الملموحة إلى الذرات المتوهمة ، شعر بما أرهقه من عبء ، فعدل عن السير ، وأخذه الخوف فكتب : « من نظر إلى نفسه على هذا النحو ملك الفزع عليه قلبه... فارتعد من تكشّف هذه العجائب . وأحسب أنه متى انقلب استطلاعه إعجابا صار أكثر استعدادا لتأملها فى صمت من البحث عنها فى زهو وعُجب . . » ويمضى پسكال فى منطقه هذا فيقول . « لابدّ من معارضة من يتعمقون العلوم أكثر مما ينبغى ، أمثال ديكارت »[1]

هكذا يتقاعد پسكال عن جهد يبدو له غير محدود ، ويعتصم بالحقائق التى يجىء بها الدين : فتلك حقائق أقل ما فيها أنها حافلة وافية مطاقة

---

(١) « ديكارت » Descartes (١٥٩٦ ــ ١٦٥٠) أكبر فلاسفة الفرنسيين ، ومن أقوى العبقريات الفكرية فى جميع فروع المعرفة الإنسانية . كان عالماً هندسياً كبيراً : اخترع الهندسة التحليلية ؛ وكان عالماً طبيعياً كبيراً أيضاً : كتب الرسائل فى « البصريات » و « الآثار العلوية » و « الميكانيكا » . ويعد ديكارت زعيم المذهب العقلى فى الفلسفة ؛ وهو أول من ألف المؤلفات الفلسفية باللغة الفرنسية . وأشهر كتبه : « المقال فى المنهج » و « التأملات » و « رسالة الانفعالات » . ويلقب ديكارت بأبى الفلسفة الحديثة ؛ وأغلب الفلاسفة المحدثين ، مهما تختلف نزعاتهم وتتشعب طرقهم ، هم تلاميذه وأبناؤه الروحيون . ــ المعرب .

حاسمة . ولكى يحطّم الوثبة الباطنة التى دفعت به بادئ الأمر إلى غزو الكون العقلى . كان لابدّ له ، وهو ذلك العالم العبقرى ، من بذل جهد عنيف أليم . وبهذا الجهد نستطيع أن نقيس المسافة الفاصلة بين المثل الأعلى اللاهوتى والمثل الأعلى العلمى : ففى مجال اللاهوت يمتلك الإنسان الحقيقة ، ويستمتع بهذا الامتلاك ؛ أما فى مجال اللاهوت فيطلب الإنسان الحقيقة ويستمتع الذهن بهذا الطلب نفسه . واللاهوت يجعل الكرامة الإنسانية فى تلك الراحة التى يفيضها على النفس يقينُ الإنسان بأنه يعرف كل ما يهمّه ؛ فى حين أن العلم يضعها فى تلك الوثبة التى يولدها اليقين بأن الإنسان محتاج دائماً إلى أن يتعلم .

يقع پسكال بين هذين المثلين الأعليين ، فيتردّد ويتألم ، ويلتهى به الأمر إلى أن ينحاز إلى جانب الاعتقاد . لقد كانت مجتمعاتنا الغربية نفسها ، قبل القرن السابع عشر بزمان طويل ، تواجه المشكلة عينها : كان يوجد فى العصر اليونانى الرومانى رغبة قوية دفعت العقول إلى البحث عن الحقائق العلمية . وكانت تلك الرغبة لا تزال ذات تأثير فى العهد الذى كانت فيه « المدرسة الإبيقورية »[1] تجاهد لتحصيل صورة عقلية

---

(١) « المدرسة الإبيقورية » L'école épicurienne سميت كذلك نسبة إلى « ابيقور » الفيلسوف اليونانى المشهور (٣٤١ ــ ٢٧٠ ق م) . شهد إبيقور فى شبابه ما ينجم عن الخرافات من أذى وبلاء ، فأراد أن يخلص الناس منها بالفلسفة وأقام لذلك مذهباً من ثلاثة أجزاء : جزء فى المنطق وهو ذو طابع حسى ؛ وجزء فى الطبيعة ، وهو نظرية فى الذرات منقحة ، وجزء فى الأخلاق وهو أخلاق اللذة ، ولكنه يقصد لذةً مختارة ومفهومة على وجهها الصحيح . كان « إبيقور » رجلاً صالحاً حسن السيرة ، وكان حكيما فى حياته وفى موته أيضاً . ــ المعرب .

للكون. ثم فترت تلك الحماسة الجميلة ؛ حتى أن التمدن القديم لما دخل بلادنا فقدَ توازع الفتح العقلى ، ووقف تقدم العلوم ، وانثنى الفكر على نفسه . فلم كان هذا ؟

لا يستطيع المؤرخ إلا أن يلاحظ أن ذلك العصر الذى انحط فيه الروح العلمى هو العصر عينه الذى برزت فيه على مسرح العالم الرومانى الأسرارُ التى جاءت من الشرق : ذلك أن « إيزيس »[١] و « قيبيل » Cybèle [٢] و « أتيس » Attis [٣] و « مِثرا » Mithra [٤] ـ وهى طلائع المسيحية ـ لا تكتفى بأن تكفل للناس الخلاص والنجاة والوعد بالنعيم المقيم فى دار الخلود ، بل تعطيهم أيضا تفسيراً للعالم وعلما فلكيا مقدسا حاسما يمكن أن يُلقَّن فى بضع ساعات . بين هذه الضروب من الوحى والإلهامات التى تقدم الغبطة الوادعة غبطة اليقين الذى يناله الإنسان بغير جهد ، و بين المناهج المتشددة التى تدعو إلى دراسة الوقائع وتقصد إلى المشكلات

---

(١) « إيزيس » إلاهة مصرية قديمة : أخت « أوزيريس » وزوجته وتمثل فى الأساطير المصرية وفاء الزوجية ووفاء الأمومة . وبهذا السمو الأخلاقى تتميز « إيزيس » عن آلهة الأسيويين واليونانيين الذين كانوا فى الغالب ميالين إلى الخلاعة والفسوق ـ المعرب .

(٢) « قيبيل » Cybèle أم الآلهة فى الأساطير اليونانية والرومانية .

(٣) « أتيس » Attis أحد الرعاة فى الأساطير اليونانية . خان « قيبيل » فعاقبته بأن جعلته شجرة صنوبر .

(٤) « مثرا » أحد آلهة « الأفستا » فى دين الفرس القدماء ، ويمثل النور والحقيقة .

المتجددة بلا انقطاع ، وقف العالم الروماني فصنع ماصنعه پسكال من بعدُ : اختار الراحة . وصبّت اللعنة على المدرسة العظيمة « الإبيقورية » من المسيحية المنتصرة ومن « جوليان الرافض » (١) . وتغلب المثــل الأعلى الذى رسمته «الأسرار». وكان لابد من انقضاء قرون قبل أن يستيقظ المثل الأعلى الآخر ويثأر لنفسه .

وقد تبدو الفلسفة لأول وهــلة أقل بعدا من المثل الأعلى العامى، لأنها هى أيضا تزهو بأنها فتح وغزو . ومن أجل هذا وجدنا بينها من بعض الوجوه أمثلة من الاتفاق العميق . ولــكن الفيلسوف كاللاهوتى شغوف باليقين التــام المباشر ، ويلزمه مذهب ضافٍ حاسم . وهو يرضى أن يستند إلى العلم ، ولــكنه كثير الجزع قليل الصبر إذا لم يجــد جوابا على كل شيء ؛ يريد أن يسبق العلم ، ولــكنه يُلجمه لــكى يسبقه .

لا أعرف مثالا على هــذه الحالة النفسية أجلى من مثــل « أوجست كمت »(٢) . كان أكبر ماشغله أن يعطى العالم الحديث عقيدة جديدة وقوة روحية جديدة ، فالتفت إلى العلم ، ووسع مجاله بما أبدعه فى علم الاجتماع، وقطع عــلائقه باللاهوت ، وطاق الميتافيزيقا . ولما تم له ذلك شرع فى إقامة الفــكر والعالم على قواعــد وضعية . غير أنه هو أيضا بقى فى هــذا

---

(١) « جوليان الرافض » Julien l' Apostat امبراطور رومانى عاش فى القرن الرابع المسيحى : أراد أن يعيد الوثنية القديمة .

(٢) انظر هامش (٣) ص ٦٢ .

فليسوفا ، فأراد شيئا حاسما . ولكن بينما كان هو يبنى ويتوقف ويشرّع ، كان العلم يتحرك ويتقدم ويقلب حقائق الأمس . فيضيق « كمت » بهذا ذرعاً وينتهى به الأمر إلى أن يضع الحدود لتطور علم الفلك ، وإلى أن يستنكر الرياضيات التى تجفّف الروح ، وإلى أن ينصح بأن لاتقرأ « محاضراته فى الفلسفة الوضعية » لأن امتلاك المذهب الصحيح ينبغى أن يكفى تلاميذه ، كما ينبغى أن يكون الإيمان بالعقائد كافيا للاهوتيين والمؤمنين .

وإذن فمثال أكبر فلاسفة العصر الحديث . يعيننا على أن نفهم أصالة المثل الأعلى الذى يستلهمه العلماء : فالعلماء كأولئك الذين سبقوهم ومهدوا لهم الطريق يجعلون الفكر صميم الكرامة الإنسانية ، ولكنهم يرون ذلك الفكر وثبة موصولة وبناءً تدريجيا لا حد له . وهذا السير الظافر للعقل ، وهذا « العدول عن الراحة » هما فى نظر العلم مدار عظمتنا الحقيقية .

أنحن بحاجة إلى أن نبيّن ما يمكن أن يكون لذلك المثل الأعلى الذى يتضمنه النشاط العلمى من أثر فى حياة الجماعات ؟ أعتقد أن ذلك الأثر يتلخص فى جملة : متى كانت الكرامة الإنسانية فى صميمها عبارة عن الجهد الموصول المعرفة فإن مهمتنا الأولى أن نعمل بحيث يكون للناس جميعا نصيب فى هذه الكرامة .

ويبدو لى أن من شأن هذه الفكرة وحدها أن تغير وجهة نظرنا الراهنة إلى أهم المشكلات العملية :

إن الحاجات المادية التى لم يتيسر لنا بعد أن نرضيها ، قد تحمل كثيرا من الناس على الاعتقاد أخيراً بأن مهمتنا الجوهرية هى النظام الاقتصادى ، وتكاد تسوقهم إلى أن يروا فى الإنسان آلة للإنتاج وآلة للاستهلاك ، وتجعلهم يظنون أن الإنسان يكون قد قام بأكبر قسط من الجهد الإنسانى يوم يتهيأ للناس جميعا أن يعيشوا فى ميسرة ورفاهية .

أما الأخلاق التى يستوحيها العلم فترمى إلى شىء أسمى من هذا : إنها تدعونا إلى أن نضع الاستمتاع الأعلى الذى هو المعرفة فى المرتبة الأولى عند جميع الأفراد .

أمعنى هذا أن هذه الأخلاق لا تعبأ بالتحرر الاقتصادى ؟ كلا . بل إنها تتطلبه وتتطلبه فى إلحاح ، لأن ذلك التحرر هو الشرط الضرورى الأول للتحرر العقلى . إنها لسخرية منكودة أن نقول لعامل يعود إلى منزله بعد أن أضناه كد آلى ، ورجل يأوى بعد الفراغ من عمله إلى مسكن قذر لا يدخله النور ولا الشمس : اشترِ كتبا وثقّف نفسك !

إننا إذا استثنينا بعض الأبطال الذين تعذبهم فكرة ما وجدنا أن العمل العقلى يقتضى شيئا من الاستقلال عن الهموم المادية: فلا يجوز أن نطالب من يكافح البؤس ساعة بعد ساعة أن تكون لديه حرية الذهن اللازمة للدراسة أو البحث . وإذن فالميسرة والفراغ يجب أن يكونا

مكفولين ، لا لبعض الناس بل لهم جميعا . ولكن هذا التحرر من نير المادة ليس غاية فى ذاته، إنما هو وسيلة : هو الوسيلة لبلوغ حال يستطيع كل إنسان فيها أن يساهم بنصيب فيما يقوّم عظمة الإنسان .

وحيث يسود هذا المثل الأعلى المتضمن فى العلم ، لن يقاس تمدن شعب من الشعوب بمقياس يقتصر على ما يبذله من جهد للتوسع فى الصناعة أو التجارة ، بل يقاس تمدنه على الخصوص بما يحاول من جهد لنصرة البحث العلمى البرىء ولإذاعة ما كان يسميه فلاسفة القرن الثامن عشر باسم « الأنوار » .

نعم إننا سرنا خطوات فى هذا السبيل . ولكن ما أبطأها من خطوات ! سيكون موضعاً من مواضع الدهشة عند العصور المقبلة أن تبسط مجتمعاتنا الغربية أيديها بالمال الوفير لإعداد معدات الهلاك وأن تقتّر أشد التقتير حين يُطلب إليها أن تؤدى المهمة الكبرى ، وهى تعميم المعارف الإنسانية . إن الذين يطلبون المال اليوم للبحث العلمى مضطرون إلى أن يصطنعوا بعض الحيلة ، فتراهم ينوهون إما بأنه مطلوب لمعاونة الصناعة، أو بأنه لازم لجعل الحرب أشد فتكا . فما أعجبه من انقلاب فى القيم ! يضطر الناس إلى التماس الأعذار عند تقديم المعونة إلى الأمر الذى فيه كرامتنا ، ولا يريدون أن يدركوا أن مصلحتنا العليا فى أن نكون أبرياء من كل غرض .

وكذلك شأن التعليم : إن من دواعى الفخر لعصرنا هذا أنه بدأ يعمل على إذاعته وتوسيع نطاقه . ولكن الناس يرون التعليم فى أغلب الأحيان سلاحاً ضرورياً للنضال من أجل الحياة ، و إعداداً فنياً لمهنة من المهن . أما أن العلم يمكن أن يكون هذا فمعلوم لكل واحد . ولكن العلم أولاً وخصوصاً هو شيء آخر ؛ ومَن أحبه لذاته فقد آثر ما هو خير وأهدى سبيلاً . وإذن فليست المشكلة الكبرى ولا المشكلة الحقيقية هى أن نُعطى الطفل واليافع ذخيرة من المعرفة نافعة ، و إنما هى أن نيسّر لجميع الأفراد أن يتذوقوا أمور الروح ، وأن يقدروا الحقيقة التى قام عليها الدليل . ولفظ «البيداجوچيا» نفسه ، إذ يقصر أمر التربية على الأطفال ، يبيّن إلى أى مدى ما زلنا دون مثلنا الأعلى هذا : لأنه إذا كان مدار كرامتنا على المعرفة ، أفليس واضحاً أننا ينبغى أن نتعلم فى كل سن ، وأن من حق الكهول فى هذا الاعتبار أن ينالوا العناية التى يظفر بها الشباب ؟ ولكننا نرى على الرغم من هذا أن أول جهودنا بهذا الصدد ضئيلة لا وزن لها . ليس لنا أن نزعم أننا نذيع فى العالم فتوحات العلم والروح العلمى . إن « الاتحاد العقلى » «L' Union Rationaliste»[1] قام إلى حد كبير مناهضاً لهذه الحال من قلة المبالاة . وقد كانت أكبر

---

(١) «الاتحاد العقلى» جماعة من العلماء والأساتذة مركزها باريس . تألفت للسعى إلى تحقيق الإصلاح الاجتماعى عن طريق نشر الثقافة العلمية فى جميع البيئات .

عنايته أن يعطى كل إنسان يهمه أن يتعلم، الوسائلَ اللازمة للوقوف على الروح العلمى . وجبذا لو بلغت تربية الكهل من القداسة عند المجتمع ما بلغته مهمة تربية الطفل .

نعيد ما سبق أن قلنا من أن صميم أى مذهب من مذاهب الأخلاق تصوره لمجتمع أفضل .

ولكن إزاء قلة المساواة التى هى القانون المنكود للحياة الاقتصادية وإزاء البؤس الذى مافتئ مخيما على ملايين البشر ، أعنى كثير من الناس من ذوى القلوب الكريمة بالمشكلات المادية عناية خاصة ، وتمنوا عالماً يكون فيه إنتاج الثروة وافراً وتوزيعها عادلا . وكل إنسان ذى قلب ينبغى أن يشاركهم فى هذه الرغبة وأن يعمل على تحقيقها . ولكن المثل الأعلى الذى يتضمنه العلم يدعونا إلى أن لانرى فى التحرر الاقتصادى إلا مرحلة أولى . و ينبغى علينا منذ اليوم أن نرنو بأبصارنا إلى أبعد وأسمى: فإن عالما ثريا وسعيداً بثرائه فحسب ، ليس بعدُ إلا عالما بائسا . أما مانحلم به نحن فهى مجتمعاتٌ توزّع على الناس جميعا ضروب الثقافة ومناهج المعرفة ، وإنسانية قد تحررت من المشاغل المادية ، فاستطاعت أن تفرغ لتوفير كرامتها، أى لتوفير معارفها .